الأشعار الغنائية لسافو

بقلم
الدكتور ابراهيم سكر

سافو هي أعظم شعراء الشعر الغنائي اليوناني ، وقد وضعها ديونيزيوس الهاليكارناسي (Lit. comp. 23) على رأس قائمة شعراء هذا اللون من الشـعر ، وجعل أناكريون Anacreon وسيمونيديس Simonides في المرتبة الثانية بعدها .

كانت سافو معاصرة للشاعر ألكايوس Alcaeus وعلى معرفة به ، وإن فاقت شهرتها شهرته ؛ وكان لها معاً أثر كبير على أسلافهما . كان اسم سافو يلقى نوعاً من السحر على الأجيال التي جاءت بعدها من إغريق ورومان ، فنسجوا حول حياتها وأعمالها القصص والروايات ، حتى أصبح من الصعب الآن التمييز بين ما هو حقيقي منها وما هو مختلق .

ولدت سافو Sappho (أو Psappho) باجماع معظم الآراء في الأولمبياد الثاني والأربعين (أي حوالي عام ٦١٢ — ٦٠٩ ق . م قارن سويداس ، تحت اسم سافو ا) بمدينة إريسوس Eresos في جزيرة ليسبوس Lesbos ، من أبوين كريمين ينتميان إلى طبقة ملاك الأراضي . كان أبوها يسمى سكاماندرونيموس Skamandronymos وأمها Kleis . وكان لها ثلاثة إخوة : لاريخوس Larichus وخاراكسوس Charaxos وإيوريجيوس Eurygyos . وكان الأول يعمـل ساقياً للخمر بقاعة المدينة ، وكان هذا العمل مقصوراً على شباب الأسر الكريمة الذين يتميزون بحسن المظهر .

وتحدثنا أخبار الرواة بأنها هاجرت من مسقط رأسها إلى مدينة ميتليني Mytilene عاصمة الجزيرة حيث عاصرت الفترة العصيبة التي كانت تجتاح المدينة في ذلك الوقت ، إذ كانت الديمقراطية تعمل على الإطاحة بطبقة النبلاء القديمة ، وذلك تحت زعامة جماعة من الباحثين عن الشهرة والمجد على رأسهم ميلانخروس Melanchros وميرسيلوس Myrsilos والحكيم بتاكوس Pittakos . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صحة الرواية التي تقول إنها لجأت إلى صقلية فراراً من حالة الاضطرابات التي سببتها تلك الثورات في جزيرة ليسبوس ، فقد كانت صقلية وطناً ثانياً لكثير من المنفيين السياسيين ؛ ومما لا شك فيه أن أهل سيراكوز Syracuse بصقلية قد أقاموا تكريماً لها تمثالا هو قطعة رائعة من أعظم ما نحته الفنان سيلانيون Silanion في القرن الرابع ق . م . ، وقد ظل هذا التمثال يزين قاعة مدينتهم حتى سرقه فيرس Verres في القرن الأول ق.م Cf. Cic. In ver. II. iv. 126-127

ومن العجيب ألا نرى فيما وصلنا من أشعار سافو ما يشير إلى هجرتها لصقلية . ويبدو أن سافو كانت صغيرة عندما كانت فى صقلية ، حتى أنها لم تترك فى نفسها أثراً عميقاً ، أو أنها كانت منغمسة فى حيــاتها الخاصة لدرجة أنها لم تلاحظ العالم الجديد الذى دخلته . وعلى أية حال فقد عادت سافو إلى ليسبوس وأنفقت باقى أيامها فى مدينة ميتليني .

وقد تزوجت سافو وأنجبت بنتاً أطلقت عليها اسم أمها Kleis . فهى تقول فى إحدى شذراتها (٣٠)[1] .

« لى ابنة صغيرة لطيفة تشبه الزهرة الوضاءة ، ألا وهى محبوبتى Kleis ، التى لا أرضى بغيرها بديلا ، حتى ولو أعطيت كل ليديا أو ليسبوس البديعة » .

ورغم أن اسم زوجها وهو كيركيلاس Kerkylas من جزيرة أندروس Andros ما هو إلا أسطورة فى نظر البعض ، إلا أنه لا يوجد أدنى سبب يجعلنا نعتقد أنها لم تتزوج ، لمجرد أن عدم الزواج كان تقليداً شائعاً بين مثيلاتها فى ذلك العصر . ولكن الأمر الذى لا يقبله العقل ، إذ يبدو بعيداً عن الواقع ، هو القصة التى تحكى أنها أحبت شخصاً يدعى فاون Phaon ، وأنها ألقت بنفسها من فوق صخرة ، لتتخلص من تباريح الهوى . وحقيقة الأمر تتضح بجلاء عندما نعلم أن فاون Phaon لم يكن رجلا ، بل قوة إلهية مرتبطة بالإلهة أفروديت Aphrodite (Cf. Ath. 2. 69 d). ويبــدو أن رواية حب سافو لفاون قد شاعت على أثر ظهورها فى الكوميديا الحديثة ، كما جاء فى ميناندر (Fr. 312, Koch) ومن المحتمل أنها جاءت نتيجة تفسير خاطئ لبعض أشعار سافو نفسها ، التى جاء فيها وصف لجمال هذا الإله Phaon . وعلى أية حال فان تاريخ وفاتها غير معروف ، ومن المحتمل أنها قد عمرت طويلا ، هذا إن صح الزعم القائل بأنها كانت تقصد نفسها عندما شكت من بياض الشعر ووهن أعضاء الجسم (Fr. 118, appendix, p. 434; cf. fr. 42

وفى ميتليني عاشت سافو حياة رائعة مدهشة ، فقد جمعت حولها جماعة من بنات جنسها فى معهد خاص تدربهن فيه على فنون الشعر والموسيقى ، وكانت تطلق على معهدها هذا اسم μοισοπόλων οἰκία أى بيت راعيــات الفنون (cf. fr. 108) ولكن يبدو أن هذا المعهد كان يعنى شيئاً أكثر من مجرد مدرسة يجتمع فيها الفتيات لتلقى بعض المحاضرات عن الشعر والموسيقى فقد كانت عضواته تشكلن ما يسمى θίασος ، أى اجتماع دينى مقصور على الفتيات وكان مكرساً للإلهة أفروديت . ولم تكن جماعة سافو هى الوحيدة من نوعها فى ميتليني . كانت هناك جماعات أخرى تحت إشراف بعض المنافسات لسافو مثل جورجو Gorgo وأندروميدا Andromeda . ولم تكن علاقة سافو بهن علاقة طيبة ، إذ قامت بينهن وبينها منازعات مصدرها الحقد والغيرة ، الأمر الذى ساعد على نشر الشائعات عنها ، فاتخذت الكوميديا من ذلك موضوعاً للفكاهة والتسلية ، مما جعل البعض يسيئون الظن بها ويصدرون ضدها أحكاماً قاسية . وكان يربط جماعة سافو ببعضهن وبرائدتهن روابط صداقة متينة وحب ومودة . ولم يكن ماكسيموس التيرى على خطأ حين قارن علاقة سافو بتلميذاتها بالعلاقة التى كانت تربط سقراط بأتباعه (Max. Tyr. 24) . ووجــه الخلاف بينهما أنه بينما كان سقراط يجمع حوله الشباب بتأثير شخصيته وسحر موضوع البحث عن الحقيقة ، كانت سافو مرتبطة مع فتياتها بروابط دينية أو نصف دينية على الأقل . لم يكن إذن بيت خادمات الإلهة أفروديت وراعيات ربات الفنون Muses مدرسة أو كلية للموسيقى والشعر ، بقدر ما كان أولا وقبل كل شيء اجتماعاً لبعض الفتيات تحت زعامة إحداهن ، وقد كرسن أنفسهن جميعاً لعبادة الإلهة أفروديت . وكانت جماعة سافو هذه تختلف فى طابعها عن جماعات الفتيات فى إسبرطة ، اللائى كن يقمن ببعض الطقوس الدينية الخاصة بالإلهتين أرتيميس Artemis وهلين Helen فمن الواضح أنهن لم يكرسن حياتهن كلية للعبادة ، كما

١ — أرقام الشذرات لأشعار سافو حسب ترتيبها فى طبعة Lyra Graeca by J.M. Edmonds

كانت تفعل تابعات سافو ، وإن كان يبدو من أغنية ألكمان Alcman المسماة « أغنية العذراء » أن فتيات إسبرطة كن يعشن فى جو من المودة العاطفية ، وهذا يشير إلى احتمال وجود تشابه بين الحالتين .

كانت سافو وفتياتها يحرصن دائماً على الاحتفال بالإلهة أفروديت والإلهات التابعات لها ، أعنى إلهات الرشاقة Χάριτες ، وربات الفنـــون αἱ Μοῦσαι وإن لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة ، فقد كن يؤهلن أنفسهن للزواج ، وكان عندما يأتى تكتب لهن سافو أغنيات الزفاف ، وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن . ولكن حتى يحين هذا اليوم ، فقد كن يعشن حياة منعزلة بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر ، وأفكارهن وعواطفهن كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو . وقد أشرفت سافو على رغباتهن الناضجة وتمكنت من توجيهها الوجهة الصالحة ، بأن تسللت فى نفوسهن بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن وإحساسها العميق بضرورة انجذابها نحوهن . وما بقى لنا من أشعارها يبين لنا إلى أى مدى دخلت سافو حيـــاة فتياتها ، وكم كانت تبادلهن الحب والمودة ، وكيف استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن .

قد لا يستطيع البعض ، من وجهة النظر الحديثة ، تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديراً صحيحاً . فلم تكن العقيدة فيها شعوراً ذاتياً بالجمال ، بل عبادة حقيقية لإلهة تؤمن بها سافو وفتياتها كل الإيمان ، إذ كانت أفروديت إلهة موجودة فى نظر سافو وفتياتها ، وعبادتهن لها كانت تفرض عليهن اتخاذ موقف معين تجاه الحياة . كانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ، ومن ثم فإن جمال من يعبدنها أمر معترف به وجـــدير بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على أنه سبيل للحب والإخلاص . إن عقيدة الجمال هذه غالباً ما كان يساء توجيهها ، ولكن يبدو أنها كانت تطوراً طبيعياً فى ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتى من الآلهة . ومما لا شك فيه أن مثل هذه المجتمعات فى إسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات ، مثل ما كان يحدث فى الاحتفال بأعياد الإلهة هيرا فى أوليمبيـــا (cf. Paus. V, 16, 2-8) ، أما فى ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلا أبسط وأكثر اتصالا بالإلهة ، فلم يكن النشاط الأساسى فى الرياضة ، بل فى الغناء . كانت أفروديت تكرم ربات الفنون ، وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب الأغانى ، وكانت سافو تدرب الفتيات المكرسات لأفروديت على الغناء .

لم تكن أفروديت الإلهة الوحيدة للحب ، كما أنها لم تكن إلهة الحب فحسب . فقد كانت الشهوة وجميع الرغبات الجسدية من اختصاص إروس Eros ، أما أفروديت فكان اختصاصها أعم وأشمل ويختلف عن ذلك ، فهى إلهة الجمال أكثر منها إلهة الرغبة فيه ، كما أنها إلهة الأزهار والبحر الباسم ، وقوتها تكمن فى البهجة والفتنة التى تلقيها بسحرها على المرئيات ، ومن ثم فان Eros الرغبة و Peitho الاغراء تابعان لها ، كما صورهما فيدياس Pheidias فى أوليمبيا Olympia . ولكن حيث إن جمال التكوين الإنسانى يصـــور أروع وأعظم ما فى الكائنات من فتنة ، فلا بد وأن تكون واهبته مسئولة أيضاً ، ولو مسئولية غير مباشرة ، عن السحر الذى ينزل بكل من يقع نظرهم عليه . ومن ثم اعتبر الإغريق هبة أفروديت كنوع من الجنون واعتقدوا أن زنارها يحتوى على فنون الغواية « التى تسلب حتى لب الحكيم » (cf. Paus. V. 16, 216-217) وكما تمثل أرتيميس Artemis المثال الكامل للبراءة ، فان أفروديت تمثل اللحظات المفاجئة للجمال المذهل الذى يطرأ على المرئيات فيغوى من يقع نظرهم عليها ويجعلهم فى حالة بعيدة كل البعد عن خبرتهم العادية . وحتى يوربيديس Euripides كان يراها قوة حقيقية للطبيعة ، قوة ، وإن كانت قاسية ، إلا أنها منصفة . واعترف سوفوكليس Sophocles بقوتها التى لا يستطيع أحد الصمود أمامها . أما سافو فكانت نظرتها إليها تختلف عن ذلك ، فان سحر الجمال

الفيزيقي بكل أشكاله ، والعواطف التي يوقظها هذا الجمال في الفتيات اللاتي لم تطمس مشاعرهن بالزواج والولادة ، كل هذا كان بالنسبة لسافو المادة التي تصوغ منها أغانيها .

كان شعر سافو يعنى أساساً بالحياة في جماعتها ، فقد كانت تكتب في مناسبات محددة ولأفراد معينين ، وكانت أشعارها تعكس مشاعرها نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة . ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من أشعارها أن يحاول أولا أن يعرف الظروف التي كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صواباً ، وهو أمر سهل ميسور ، تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف إنسانية عامة ، ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيراً ، وهذا ما يجب أن يوضع في الاعتبار . إن طبيعة هذه المسألة يمكن أن ترى بوضوح في القصيدة الأولى من كتابها الأول،وهي عبارة عن أنشودة موجهة إلى أفروديت :

« أي أفروديت الخالدة ، يا ذات العرش الوضاء ، يا بنت زيوس ، يا مدبرة الأمور ، إليك أتقدم بالضراعة : أي ملكتي ، لا تفعمي قلبي بالآلام والأحزان ، بل أقبلي إلى هنا ، إن كنت قد استمعت من قبل إلى صوتي ذات مرة عن بعد وأنت تطلين من عل ، إن كنت قد تركت بيت أبيك الذهبي وأقبلت بعد أن ملكت زمام عربتك . إن بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضراك فوق الأرض المعتمة ، وهما ترفرفان بأجنحتهما القوية عبر السماء خلال الهواء ، وسرعان ما وصلتا . وأنت ، أيتها المباركة ، والابتسامة تعلو وجهك الخالد ، قد سألت عم ألم بي ، ولماذا أدعوك ، وماذا في قلبي الثائر أريده أن يحدث أكثر من أي شيء آخر : « من تلك التي تودين الآن أن يوقعها الإغراء في حبك ؟ من تلك التي تلحق بك الأذى ، أي سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن ، فانها سرعان ما سوف تسعى إليك ، وإذا كانت لا تتقبل منك هداياك، فانها مع ذلك سوف تعطيك ، وإذا كانت لا تحبك ، فانها سوف تقع سريعاً في هواك ، رضيت أم أبت » . تعالي إلى الآن كما فعلت من قبل ، وخلصيني من الهموم القاسية ، وحققي كل ما يتطلع إليه قلبي ، حققي ، وكوني حليفتي في المعركة » .

إن الغرض من كتابة هذه القصيدة واضح إلى حد كبير . فان سافو تستنجد بأفروديت ، لعلمها أن الإلهة قد أسرعت لنجدتها من قبل . في وقت آخر ، كان يمكن لمثل هذه الأبيات أن تعد تعبيراً عن بعض المشاعر كتبتها شاعرة لتخفف بها عن نفسها من ضغط أفكارها عليها . ولكن في حالة سافو ، وقد كانت تكتب أشعارها لتغنيها هي أو أفراد جماعتها ، فلا بد أن تكون هذه الضراعة لأفروديت قد ألفت لمثل هذا الغرض . إنها ضراعة حقيقية موجهة إلى إلهة حقيقية عاشت سافو على خدمتها . إن الصدق واضح في القصيدة بصورة لا تقبل الشك ، فالقصيدة تتحدث عن حادثة وقعت في حياة سافو ، ولكن سافو ، على غير ما هو متوقع ، لا تذكر اسم المحبوبة ، بل تترك الموقف غامضاً . القصيدة وصلتنا كاملة ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن اسمها ذكر بعد ذلك فيما لم يصلنا من القصيدة ولعل السبب في عدم ذكر الاسم هو أن سافو كانت قد غنت هذه القصيدة في حضور الفتاة المحبوبة بين باقي أفراد الجماعة ، وأنها كانت معروفة لدى جميع الحاضرات (Cf. Wilamorwitz, Sappho und Simonides, p. 48)

هذه القصيدة توصلنا إلى قلب الحياة في جماعة سافو ، فهي ترينا كيف أن هذه الحياة كانت تسيطر عليها الإلهة أفروديت التي تعبدها وتكرمها تلك الجماعة. فطالما كانت الفتيات عضوات في هذه الجماعة ، فقد كان في إمكانهن تبادل الحب مع بعضهن ومع سافو . وليس في مثل هذه العلاقة أي غضاضة من وجهة النظر الأخلاقية اليونانية ، وحيث إنه لا يوجد أي دليل أكيد على أن هذا الحب كان مشوباً بالأنانية أو البحث عن المتعة الجسدية ، فليس هناك ما يدعو إلى توجيه أي اتهام ضد هذا الحب ، جرياً وراء قواعد أخلاقية أكثر

صرامة من القواعد اليونانية . فهذا الحب كان يختلف تماماً عن اللواط الذى كان موجوداً فى بلاط بوليكرايتس Polycrates (طاغية جزيرة ساموس فى النصف الأخير من القرن السادس ق . م) ، وبالرغم من أن الجماعتين كلتيهما لها طبيعة تكاد تكون واحدة ، وهى انعزال الجنس اجتماعياً عن الجنس الآخر ، إلا أن الحب فى جماعة سافو كان أسمى بكثير عن مستوى الحب فى البلاط السالف الذكر . فقد كان الحب فى جماعة سافو تطوراً طبيعياً بين جماعة تؤمن إيماناً صادقاً بالحب وإلهته ، هذا إلى جانب أن الحب بينهن كانت تصونه قيود صارمة من القيم الروحية ، وتسمو به حاسة سافو الأخلاقية الخاصة . حقاً كانت مشاعرها تجاه العذارى فى كثير من الأحيان مشاعر عاطفية ، ولكنها لم تكن بحال مشاعر جنسية . فمشاعرها كانت مليئة بالرقة والود ؛ فهى تحس بلوعة الفراق وذل الهجران ، ولكن هذه كلها مشاعر طبيعية لشخصية كسافو تحس إحساساً عميقاً وتعبر بوضوح عما تحس . وإنه لمن سوء الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأفكار المتضاربة ، فهى أحياناً لوذعية ، وأحياناً أخرى خيالية ، وفى بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية جداً حتى لتبدو مرضية سوداوية ، مما دعا البعض ، ممن لا يتوخون الدقة فى إصدار أحكامهم ، إلى اتهامها بالخلاعة والمجون ، واعتبارها امرأة ساقطة ؛ وهذا يتنافى تماماً مع الاحترام الذى كان يبديه كتاب العصور القديمة أثناء حديثهم عنها . فأرسطو (Rhet. 1398 B) يحدثنا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها ، حتى إن حكومة بلدها قد مجدتها ونقشت صورتها على قطع العملة . (Pollux IX, 84) . ويضعها سقراط فى مصاف الحكماء (Plat. Phaed. 235 B) ولا يملك المرء ، عند سماع أغانيها ، إلا أن يتوقف عن الشراب ويخفى كأسه خجلا (Plut. Symp. VII, 8, 2)

وكان من دواعى الفخر لنساء عصرها أن يقال عنهن إنهن كسافو فى الثقافة والحكمة وكتابة الشعر (Luc. Merc. Cond. 36) ولعل وجود سيدة ساقطة فى ليسبوس تحمل نفس اسم الشاعرة سافو (cf. Ael. V.H. 12, 19 ; Suid. SV. Phaon) من الأمور التى أدت إلى إشاعة الخلط بين الشخصيتين عند بعض الرواة . كما أن التفسير الخاطئ لكلمة ἑταῖρα التى تحمل فى الغالب معنى « محظية » من الأمور التى أدت إلى نفس الشىء ، فالكلمة تحمل أيضاً معنى « صديقة حميمة » وقد استعملتها سافو نفسها فى هذا المعنى فى إحدى قصائدها (Ath. 15, 571 d)

...τάδε νῦν ἑταίραις
ταῖς ἔμαισι τέρπνα κάλως ἀείσω (شذرة ١٢)

« سأغنى الآن لصديقاتى هذه الأغنيات غناء متقناً » .

أما عظمتها كشاعرة فأمر يكاد يكون متفقاً عليه من جميع الرواة والنقاد ، فقد رفعها البعض إلى مصاف الإلهة واعتبرها إلهة عاشرة لربات الفنون التسعة Muses (cf. Anth. Pal 71, 407, 718 ; 9, 66, 506; Plut. Amat. 18) وأشعارها فى رأى البعض الآخر تفوق كل شعر دبجه يراع امرأة ، كما يفوق شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل (cf. Anth. Pal. 7, 15) وكان من عادة سقراط أن يطلق عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها ، رغم أنها كانت ضئيلة وسمراء ، وذلك لجمال أشعارها وروعتها ، (Max. Tyr. 24 (18), 7) ، تلك الأشعار التى تمنى سولون الحكيم ذات يوم أن يحفظ بعضاً منها ثم لتأت المنية (Stob. Fl. 58, 29) .

إن طبيعة عواطف سافو يمكن أن ترى بوضوح من هذه الأبيات الرائعة التى تتحدث فيها عن فتاة رحلت عنها ، وتستعيد أيام حياتهما معاً فى شكل محادثة دارت بينهما قبيل الرحيل (شذرة ٨٣) .

« إذن فانى لن أرى أتثيس مرة أخرى » .

« إنى حقاً أود أن أموت . لقد تركتنى وهى تبكى بدموع غزيرة وقالت لى « وا أسفاه ! كم نحن تعساء ! على الرغم منى ، يا سافو ، أرحل عنك ، أقسم لك » . وأجبتها بهذه الكلمات « اذهبى وابتهجى ، فقط اذكرينى ، فأنت تعرفين مدى شغفى بك . وإن كنت لا تذكرين ، فانى أذكرك بما نسيت ، أذكرك بالأوقات السعيدة البهيجة التى أمضيناها معاً . فكم من مرة ، وأنت بجانبى ، قد زينت خصل شعرك المتهدلة بجدائل من زهر البنفسج والورد البهيج ، وعقدت حول عنقك الرقيق قلائد من مئات الأزهار ، وضمخت جلدك البض ، وأنت فى صدرى ، بكثير من العطور الملكية الثمينة ، وكل ما تتمناه (فتاة أيونية ناعمة) حصلت عليه ، وأنت تجلسين على حشية لينة ، من أيدى وصيفات رفيقات . وليس هناك من (تل) أو مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب إليه ؛ ولم (يملأ) الربيع (المبكر) أى غابة بشدو (البلابل) المتنوعة (إلا وتجولت فيها معى) . . . » .

وبالرغم من أن القصيدة لم تصلنا بدايتها ولا نهايتها ، وكثير من أبياتها متناثرة ، إلا أنها مع ذلك تمدنا بطبيعة الحياة بين سافو وجماعتها . فالقصيدة تسجل محادثة استعادت فيها سافو الساعات الحلوة التى أمضتها مع صديقتها التى اضطرت إلى الرحيل عنها والتى قال عنها بعض المعلقين إنها كانت تسمى أتثيس . فهى تبدأ بكلمات مختصرة غير منمقة يتجلى فيها الأسى بوضوح ، ثم تنتقل سافو إلى ذكر ألوان المتع المختلفة التى كانت تمضى فيها حياتها مع صديقاتها : فى الاحتفالات ، حيث كن يتزين بالزهور ويتضمخن بالطيب ، وفى زيارة الأماكن المقدسة حيث يحتفلن بأعياد الإلهة أفروديت ، وفى التجوال بين المناطق الخلوية التى حبتها الطبيعة بجمال فتان وبين الأحراش وجداول المياه حيث تصدح البلابل بشدوها العذب الذى يبعث فى النفس النشوة والطرب .

إن الإلهة ، التى كانت سافو وصويحباتها يقمن على خدمتها ، هى أفروديت ، ولكن التفاصيل الدقيقة للطريقة التى كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون مجهولة تماماً . وأفضل ما وجد فيما وصلنا من شعر سافو ، وله صلة بهذه الطقوس ، شذرة تتألف من أربعة أبيات (شذرة ١١٧) تصف مذبحاً من الأغصان نصب تكريماً للإلهة أفروديت وإلهات الرشاقة Χάριτες

« . . . أما أنت ، يا ديكا ، فانسجى بيديك الرقيقتين جدائل بديعة واجدليها معاً بأغصان الزهور . فان الإلهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينته بالأزهار ، وكذلك ربات الرشاقة المباركات يزداد استحسانهن له ، ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التى لا تتوجها الزهور » .

ويبدو من هذه الأبيات أن طقوس الإلهة أفروديت كانت تتم فى الهواء الطلق . وربما فى أحد الأحراش المقدسة . وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة ١١٢) .

« لقد طلع البدر علينا ، واتخذت العذارى أماكنهن حول المذبح . . . »

وربط إلهات الرشاقة بالإلهة أفروديت أمر طبيعى ومعروف ؛ فهوميروس فى الإلياذة (٥ ، ٣٣٨) يجعل إلهات الرشاقة ينسجن رداء مقدساً للإلهة أفروديت ، وفى الأوديسا (٩ ، ٣٦٤) يتغنى ديمودوكوس Demodocus بالطريقة التى كن يغسلن بها الإلهة أفروديت ويضمخنها بالزيت عند ذهابها إلى قبرص .

وكانت الإلهة تستدعى لحضور هذه الطقوس بالأغنيات . ولدينا شذرة (٦) تدل على أن هذه الطقوس كانت عبارة عن مأدبة تدعى إليها الإلهة لتشارك فيها :

« أى إلهة الحب ، أقبلى ، أيتها القبرصية ، وصبى برقة لرفيقاتى ورفيقاتك الرحيق الممزوج بالبهجة فى الكؤوس الذهبية » .

ولا بد أن تكون هذه الأبيات جزءاً من أنشودة ابتهال من سافو إلى أفروديت . ومن المحتمل أن تكون

الكؤوس الذهبية كؤوساً خاصة بالطقوس الدينية تستعمل فى المناسبات الكبيرة ، كالأوانى الذهبية التى يصفها بندار وهى تستعمل فى حفلات الزفاف (Ol. vii. I ff) . وأفروديت نفسها هى التى تصب الخمر ، وإسناد الوظيفة إليها شخصياً يجعلنا نعتقد أن شرب الخمر كان جزءاً من الطقوس . وهى باعتبارها إلهة للنماء ، فقد كانت ، كالإله ديونيزيوس Dionysius مرتبطة بالخمر واهب الحياة . وكانت إلهات الرشاقة تستدعى أيضاً بمثل هذه الكلمات (شذرة ٦٨) .

« أى إلهات الرشاقة ، ذوات الأذرع الوردية الطاهرة ، أقبلن ، يا بنات زيوس » وكانت ربات الفنون مرتبطة بإلهات الرشاقة ، والربط بينهما طبيعى ومعقول ، فعبادة إلهات الرشاقة تشتمل على الغناء ، وهو من اختصاص ربات الفنون ؛ ومن ثم فان ربات الفنون كانت هى الأخرى تستدعى لمثل هذه الولائم (شذرة ١٢٩) .

« أى ربات الفنـــون ، أقبلن أيضاً ، واتركن (مأواكن) الذهبى » .

وهذا البيت يجمع بينها (شذرة ١٠١) .

« والآن ، أقبلن ، أى إلهات الرشاقة الرقيقات ، وأنتن أيضاً ، أى ربات الفنون الشقراوات » .

وكان يرتبط بعبادة أفروديت أيضاً حبيبها الصغير أدونيس Adonis . وكان روحاً من أرواح النماء ، ولد من شجرة الآس (Ovid. Met., x, 512) التى أصبحت رمزاً تدل عليه . كانت القرابين التى تقدم إليه هى ثمار الخريف ، وكانت أحواض الزهور يطلق عليها اسم « حدائق أدونيس » (Plat. Phaed., 276 b) وكان أدونيس يحيا ويموت كل عام . وبالرغم من أن عبادته لم تلق رواجاً فى معظم أنحاء العالم اليونانى ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة فى ليسبوس . ولا بد وأن تكون سافو قد كتبت عن عبادته بعض الأغنيات ، فان ديوسكوريديس Dioscorides قـــد كتب يحدثنا عنها بأنها كانت « تشارك أفروديت فى نحيبها ، عندما كانت تنوح من أجل سليل كينيراس الصغير (وهو أونيس ، (cf. Ox. Class. Dict., p. 193 فى الدغل المقدس للآلهة المباركة » (Anth. Pal. vii. 407) إن النحيب من أجل أدونيس يعبر عن النحيب لغروب شمل الحياة عن الحقول والحدائق ، والأغنية التى كتبتها سافو لهذه المناسبة تحمل طابع الأغنية الشعبية ، وقد وصلنا من هذه الأغنية بيتان (شذرة ١٠٣) هما حوار بين أفروديت ووصيفاتها اللائى ربما كن عرائس الغاب . ومن المحتمل أن هذه الأغنية كانت تغنيها سافو متمثلة أفروديت ويرد عليها فتيات جماعتها يمثلن تابعات أفروديت . ويمكن أن ترتب على النحو التالى :

العرائس : أى كيثيريا (اسم لأفروديت) ، إن أدونيس الرقيق فى النزع الأخير ، ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟

أفروديت : أضربن صدوركن ، يا فتيات ، ومزقن ثيابكن .

إن رنة الحزن والنحيب على الإله المحتضر تبدو بجلاء فى الأغنية ، ومثل هذه النغمة الحزينة تظهر أيضاً فى العبـــارة «ὦ τὸν Ἄδωνιν» وبلاه لأدونيس (شذرة ٢٥) .

كانت جيرينا Gyrinna وأتثيس Atthis وأناكتوريا Anactoria أحب الفتيات إلى قلب سافو (Max. Tyr. 24, [18]) والقصيدة التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة ٣٨) .

« فى رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان ، وفى رأى البعض الآخر جيش من المشاة ، وفى رأى غيرهم أسطول من السفن ، ولكن بالنسبة لى فهو من يحبه المرء . ومن السهل توضيح ذلك لأى إنسان . فان هيلين ، التى كانت تفوق كل البشر جمالا ، فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها مينلاوس) من دمر كل شرف طرواده (باريس) دون أن تفكر مطلقاً فى طفلتها (هيرميون) ووالديها الأعزاء ، ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها

بعيداً ، فمن السهل دائماً أن تستمال المرأة ، عندما تفكر باستخفاف فيما هو قريب وعزيز . وهذا ما يجعلنى أتذكر الآن أناكتوريا ، التى رحلت عنا ، والتى أفضل سماع وقع خطاها الجميل ورؤية وجهها المشرق الوضاء ، على جميع عجلات ليديا الحربية ومشاتها المسلحين . إنى أعلم علم اليقين أن المرء لا يستطيع أن يحصل على الأكمل ، ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه غيره ، أفضل من أن ينساه » .

هذه القصيدة تلقى ضوءاً على عواطف سافو وفنها ، فهى قصيدة عن الحب ذاته . وما تريده سافو هو حضور أناكتوريا الذاتى ؛ والجملة التى تعبر فيها عن هذه الرغبة هى بيت القصيد ؛ وعلى الرغم من بساطة هذه الجملة ، إلا أن الكلمات فيها قد أحسن اختيارها ، حتى إن كلا منها يعطى التأثير المطلوب فى الحال . ولهذه القصيدة أهمية أخرى ، فهى تلقى ضوءاً على رأى سافو فى الحب من خلال ذكر هيلين . واسم هيلين بالذات له أهمية كبيرة ، لأنه يفسر طبيعة الحب. إن سافو لم تتهم هيلين ، كما اتهمها ألكايوس عندما قارنها بثيتيس Thetis (شذرة ١٢٠ من ألكايوس فى Lyra Graeca) ، ولم تمتدحها ، ولكنها تقرر أنها فعلت ما فعلت بسبب الحب وحده . وسافو فى موقفها هذا تجاه هيلين أقرب إلى موقف هومر من أى شاعر آخر من شعراء الإغريق ، والفرق بينهما أن فهم هومر لمشكلة هيلين يأتى من الخارج ، أما فهم سافو لها فمن الداخل . فسافو تفهم هيلين ، لأنها هى نفسها تحب ، وتعلم جيداً أن المرأة عندما تحب ، فان كل شىء ، فيما عدا الحب ، لا يعنى شيئاً بالنسبة لها .

إن الدور الذى لعبه الليديون فى هذه القصيدة يبين لنا إلى أى مدى كانت ليسبوس قريبة من آسيا العظيمة القوية ، وتقدير هذه القوة حق قدرها يمدنا بحل لفهم قصيدة أخرى تتعلق بفتاة أخرى من تلميذات سافو وصديقاتها وهى أتثيس ، الموقف هنا واضح تمام الوضوح . فتاة ما قد رحلت إلى سارديس Sardis فى ليديا Lydia ، وسافو تفكر فيها وهى فى مقامها الجديد وهى تتذكر أتثيس بشوق وحنين (شذرة ٨٦) .

« (أتثيس ، إن عزيزتنا أناكتوريا تسكن بعيداً) فى ساردیس ، ولكنها كثيراً ما تبعث بأفكارها إلى هنا ، وتفكر فى الأيام التى كنا نحياها معاً، عندما كنت بالنسبة لها إلهة مجيدة ، وأغانيك أحب الأغانى إليها . ولكنها الآن تضئ بين نساء ليديا ، كالقمر بعد غروب الشمس ، كالقمر ذى الأصابع الوردية وهن من حولها كالنجوم ، كالقمر الذى ينشر ضوءه عبر البحر الأجاج وفوق الحقول المزهرة أيضاً ، بينما الطل ينزل جميلا على الأرض ، والورود تحيا من جديد وكذلك الحشائش الرقيقة والنباتات المزدهرة . وهى غالباً ما تروح وتغدو عندما تتذكر حبها لأتثيس الدمثة ، ويتحرق قلبها الرقيق بلا شك شوقاً وحنيناً ، وتصرخ بنا عالياً أن نذهب إليها هناك ، وما تود أن تقوله ، فنحن نعرفه جيداً ، أنا وأنت ؛ لأن الليل ، الذى تنسج خيوطه الأزهار والذى يملك آذاناً كثيرة ، يطلعنا على كل ما بيننا » .

إن المناسبة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأبيات يمكن تخمينها على النحو التالى : ترى سافو القمر يطلع من البحر عبر ميتليني ويجعل ليديا على مرأى البصر ، الأمر الذى يذكرها بصديقتها التى تعيش فى سارديس تحت ضوء نفس القمر . ومشاعرها هنا ليست مشاعر الحب بقدر ما هى مشاعر التعاطف والمشاركة الوجدانية فقد أثارها الحب الذى تكنه الفتاة البعيدة لأتثيس . وتدخل سافو فى الموضوع مباشرة حتى لتبدو القصيدة وكأنها رد فعل لحبها هى . وطبيعة عاطفتها تظهر من التشبيه بالقمر ، فهذا التشبيه يبين كم كانت سافو تجد المتعة فى جمال الفتاة ، وتصويرها لرفعة شأنها بين الفتيات الليديات بالقمر بين النجوم تصوير رائع ، لا لأنه تصوير مناسب وجميل فحسب ، بل لأنه تصوير فرضه عليها القمر نفسه وهو يتلألأ فوقها مضيئاً فى كبد السماء .

إن الفتاة التى تشير إليها هذه القصيدة هى أتثيس ، والفتاة الأخرى التى رحلت إلى ليديا هى أناكتوريا .

وهناك أشعار أخرى جاء فيها ذكر أتثيس ، والدليل على حب سافو لها هو أشعارها . فبعد كتابة القصيدة السابقة ، تركت أتثيس سافو وانضمت إلى جماعة أندروميـــدا Andromeda منافسة سافو . فكتبت سافو تقول (شذرة ٨١) .

« انظرى ، إن الحب ، الحلو المر ، مفكك الأعضاء ، ذلك المخلوق الذى لا يقهر ، يعصف بى ، بينما أصبحت أنت ، يا أتثيس ، تكرهين التفكير فى ، وهربت إلى أندروميدا بدلا منى » .

كانت أندروميدا مثل سافو ترأس جماعة من الفتيات . وكان الخروج من جماعة إلى أخرى يعتبر خيانة شخصية . وقد قارن أحد النقاد (Max. Tyr. 24 [18]) علاقة ســـافو مع أندروميـــدا بعلاقـــة سقراط مع السفسطائيين بروديكوس Prodicus وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras ، وقال « كانت فى بعض الأحيان تخطئهن ، وأحياناً أخرى تدحض دعواهن أو تتجاهلهن ، تماماً كما كان يفعل سقراط » . وقد وصلنا من أعمال سافو مثلان يوضحان هذه العلاقة . فى الأول تخاطب سافو فتاة معجبة ، بأندروميدا وتوضح لها أخطاء منافستها (شذرة ٩٨)

« أى امرأة ريفية فى ملابس ريفية تلك التى تلهب صدرك ، مع أنها لا تعرف كيف تسدل رداءها إلى ما فوق خلاخيل أقدامها » .

وفى مناسبة أخرى توجه خطابها إلى أندروميدا فى سخرية مريرة (شذرة ١٢١) :

« إنى أتشرف بتقديم أزكى تحياتى إلى ابنة الملوك الكثيرين » .

كما جاء ذكر أندروميدا فى بيت آخر (شذرة ١٢٥)

« لقد حصلت أندروميدا على صفقة رابحة » .

وليس هناك ما يشير إلى طبيعة هذه الصفقة ، وإن كان من المحتمل أن يكون المقصود بها ذهاب أتثيس إلى جماعتها . وإذا كانت سافو تعامل منافستها أندروميدا بطريقة عاجلة ومرتجلة ، فانها تعامل عدم وفاء أتثيس لها بجدية كبيرة . ويبدو أن سافو قد كتبت قصيدة تلخص فيها حبها القديم لأتثيس . وفى هذه القصيدة بيت من أجمل ما كتب فى هذا المعنى (شذرة ٤٨) :

« أى أتثيس ، كنت أحبك ذات يوم ، منذ أمد بعيد » .

وهى فى نفس القصيدة تصفها عندما رأتها لأول مرة ، وكانت سافو ما تزال فى ريعان صباها ، بأنها كانت صغيرة غير مكتملة .

« وعندما كان شبابى فى أوج ازدهاره ، كنت فى نظرى مجرد طفلة صغيرة غير مكتملة » .

وهناك بيتان فى نفس الوزن ، وربما كانا من نفس القصيدة ، يشيران إلى قصة الحب القديم بينهما (شذرة ٨٩) .

« لقد أحسنت صنعاً إذ أتيت ، فقد كنت فى شوق إليك ، فأنت تشعلين قلبى غراماً بك » .

فهذه الأبيات المتناثرة تشير إلى قصة عاطفية ، فان سافو وهى فى ريعان شبابها ترى أتثيس ، ولا تأبه لها فى أول الأمر ، ولكنها تقع فى حبها ، وتبادلها أتثيس العاطفة ، ثم ترحل عنها إلى أندروميدا ، فتغضب سافو وينكسر قلبها إلى حد كبير .

هذه الحادثة تكشف لنا عن مشاعر سافو نحو فتيات جماعتها . ومثل هذه العلاقة كانت تصل إلى ذروتها عندما ترحل عنها إحدى الفتيات إلى بيت الزوجية . ففى هذه الحالة كان يتنازع سافو عاملان . الأول مشاعرها الخاصة لانفصال إحدى صديقاتها عنها ، وكانت هذه المشاعر تلهمها كتابة قصيدة تعبر فيها عن أحاسيسها الخاصة . ولكن كان عليها أيضاً أن تكتب أغنية الزفاف ، وكانت هذه تصور بروح مختلفة تماماً . وأحسن ما يصور الحالة الأولى قصيدة مشهورة ، كتبتها سافو فى حفل عرس ، عندما رأت العروس تجلس بالقرب من عريسها ، وهذه القصيدة ترينا كيف أن سافو أحست الموقف إحساساً عميقاً (شذرة ٢) .

« يبدو لى أن هذا الرجل ند للآلهة ، إذ يجلس أمامك ويستمع ، وهو قريب منك ، إلى نغمات صوتك

العذبة وضحكاتك الساحرة ، التى تجعل قلبى يخفق بين جوانحى . فعندما أنظر إليك ، أى بروخيا ، تعوزنى الألفاظ أو تخوننى تماماً ، وينعقد لسانى عن الكلام ، وفى الحال تسرى فى بدنى نار هادئة ، وتغيم عيناى ، وتطن أذناى ، ويتصبب منى العرق ، وتنتاب جسدى كله رعدة ، وأصبح شاحبة كالعشب ، حتى لأبدو وقد صرت قاب قوسين أو أدنى من الموت » .

لا شك أن المناسبة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأبيات هى حفل عرس ، لا لأن كلمة ὤνηρ تحمل معنى « زوج » ، ولكن لأنه فى حفلة الزفاف فحسب يمكن للفتاة أن تجلس بجوار الرجل وتتحدث معه فى حرية . ومن المحتمل أن تكون الفتاة محجبة والحفل مقام فى منزل أبيها . ووجود سافو بالحفل يرجع إلى أنها أستاذة الفتاة ورئيسة الجوقة التى ستغنى أغنية الزفاف . ولكن فيما يخص مشاعر سافو الخاصة ، فانها منفصلة عن واجبها حيال العروس ، فهى تشعر بالخسارة التى حاقت بها كنتيجة حتمية لهذا الزواج . والآثار الناجمة عن عواطفها المتأججة آثار فيزيقية ، كما هو واضح من ألفاظ القصيدة ، وقد جاءت مثل هذه التعبيرات فى شذرات أخرى لسافو . فهى تصف الحب (شذرة ٢٨) بأنه « مسبب الألم ، ناسج خيوط الأقاصيص » (قارن شذرة ٤٢ ، ٧ — ٨) . وفى مكان آخر تقول (شذرة ٥٤) :

« أما بالنسبة لى ، فان الحب يعصف بروحى ، كما تعصف ريح عاتية بشجرة عالية » .

وفى نهاية القصيدة تقول بأنها موشكة على الموت . والتعبير طبيعى وصادق بعد الأعراض الفيزيقية التى انتابتها . إن الرغبة فى الموت تعبير شائع بين الشعراء منذ العصر الهللنستى ؛ وبالرغم من أنه قائم على عواطف حقيقية ، إلا أنه أصبح « كليشيه » ينقصه الإخلاص الصادق . أما بالنسبة لسافو ، فانها عندما تقول إنها تود أن تموت ، فهى تعنى ما تقول ، لأن تباريح الهوى بسبب الهجران تكاد تقضى عليها ، حتى إن الموت لا يبدو أمراً حتمياً فحسب ، بل ومرغوب فيه أيضاً . ولا بد أنها كانت فى مثل هذه الحالة عندما قالت : « وإنى لتسيطر على رغبة ملحة فى أن أموت ، وأرى ضفاف نهر أخيرون التى تغطيها أزهار اللوتس الندية » . (شذرة ٨٥ ، ١٠ — ١٢) وعندما قالت « إنى حقاً أود أن أموت » (شذرة ٨٣ ، ٢) .

وإذا كانت هذه مشاعر سافو عندما رأت إحدى فتياتها الأثيرات تجلس بجوار عريسها ، فان الشذرات الباقية لنا من أهازيج العرس ἐπιβαλάμια التى كتبتها تؤكد لنا أنها كانت تستطيع أن تكبح جماح عاطفتها الشخصية ، وتكتب أغنيات فى غاية الجمال والشفافية لتغنى فى حفل الزفاف التقليدى .

كانت لأهازيج العرس أنواع مختلفة تبعاً لزمان ومكان الحفل الذى ستغنى فيه . وكانت حفلات العرس تبدأ عادة بوليمة العرس ، التى كان يحضرها العريس وعروسه ؛ وكانت هذه الوليمة تقام بمنزل والد أحدهما ، وكان يمكن للسيدات الحضور . وكان لهذه الوليمة طابع دينى ، إذ كان والد العروس يقدم القرابين لآلهة الزواج ومن بينها الإلهة أفروديت ، ومعرفة سافو لهذه الطقوس تتضح من وصفها لإحدى هذه الولائم فى الأولمب (شذرة ١٤٦) .

« كان هناك وعاء من الأمبروزيا المخلوطة معداً من قبل ، وقد أخذ هيرميس إبريق الخمر وصب للآلهة. وعندئذ رفع الجميع أقداحهم ، وأراقوا قرباناً من الخمر وتمنوا للعريس أطيب التمنيات جميعها » .

وأيا كان العريس والعروس المقام لهما هذا الحفل فى الأولمب ، فلا شك أنه صورة طبق الأصل لحفل على ظهر الأرض . وليس من الواضح أن الأغنيات كانت تغنى عادة أثناء هذه الولائم ، وليس فى أغنيات سافو الخاصة بحفلات الزواج ما يشير إلى ذلك بصورة واضحة . ويبدو أنها كانت تبدأ فى نهاية الوليمة . وكان

الحفل ينتهى عندما تصل إلى منزل الزوجية الجديد عربة العروس التى كان تقلها وبجانبها العريس وبالجانب الآخر الإشبين المسمى παρανύμφιος . وقد وصف لنا لونجوس Longus ، وهو أحد الشعراء العارفين بتقاليد ليسبوس الذين قرأوا أشعار سافو ، نموذجاً ريفياً لمثل هذه الحفلات (Longus, Daph. & Ch. IV. 40)

« وعندما يأتى الليل ، كان المدعوون يصحبونهما إلى مخدع الزوجية ، كان البعض يعزفون بالناوت والبعض الآخر يعزفون بالمزامير ، وآخرون يحملون فى أيديهم الفوانيس والمشاعل وهم يسيرون فى مقدمة الموكب . وعندما يصلون إلى عتبة المخدع كانت تنطلق الأغانى فى نغمات جافة خشنة تشبه أصوات الفئوس والمعاول » .

والأغنية التى كانت تغنى على هذا النحو هى أغنية الزفاف الحقة (ὑμέναιος) وقد ورد وصف مماثل فى هومر (It. XVIII 491-496) :

« كان هناك أعراس وولائم ، وكانوا يخرجون العرائس من حجراتهن ، ويسيرون بهن خلال المدينة تحت أضواء المشاعل ، وكانت أغانى العرس التى كانت تتردد إذ ذاك عظيمة ، كان الفتية الراقصون يدورون، ومن حولهم ترتفع أصوات النايات والمزامير ، وكانت كل واحدة من السيدات تقف مشدوهة عند الباب الأمامى » .

لم يصلنا من شذرات سافو ما يشير إلى هذا الموكب وإن كان بعضها يمكن ربطه باللحظات الأخيرة منه ، عندما يتوقف الجمع أمام مخدع العرس . وكما جعل لونجوس المحتفلين بالعرس الريفى يغنون فى « أنغام جافة خشنة » فقد تركت سافو فى هذه الأغانى أسلوبها الشاعرى المعتاد ، واستخدمت أسلوباً مغايراً قريباًمن لغة الحوار المتداول بين الناس . ولعل السبب فى وجود الصخب والتهريج وفحش القول فى حفل الزفاف يرجع إلى فكرة إبعاد الحظ السئ عن العروسين بجعلهما يبدوان أقل سعادة مما هما . ومثل هذا الفحش والصخب يرى بوضوح فى أغنية الزفاف الموجودة فى نهاية مسرحية « السلام » لأرستوفانيز ، ولكن هناك من أشعار سافو ما يكفى لتوضيح ذلك . كان الهزل عند سافو أقرب إلى المداعبة منه إلى الفحش . كان «البواب» شخصية هامة ، ومن ثم يستحق المداعبة بالتهكم عليه . كان على البواب أن يوصد الباب على العروسين ويمنع أصدقاء العروس من الدخول لمساعدتها ، إذا ما صاحت مستنجدة . وقد جعله ثيوكريتوس Theocritus يقول وهو يباشر عمله « الجميع بالخارج » (ἔνδοι πᾶσαι) ثم يوصد الباب (cf. Theoc. XV. 77) وكان هناك بالطبع بعض أفراد الجوقة من أصدقاء العريس الذين كانوا يتهكمون عليه . وفى هذه الأبيات تتهكم سافو من أقدامه الضخمة (شذرة ١٥٤) :

« إن أقدام البواب يبلغ طولها سبعة أذرع ، ونعاله مصنوعة من جلد خمسة من الحيوان ، واشتغل بها عشرة من صانعى النعال » .

وبمثل هذه الروح المرحة تداعب العريس وتتهكم على طول قامته وتقول إن السقف يجب أن يرفع عندما يدخل (شذرة ١٤٨) :

« ارفعوا السقف عالياً، مرحباً باله الزواج Hymen
ارفعوها عالياً ، أيها العمال المهرة ، مرحباً باله الزواج Hymen
فالعريس قادم وكأنه أريس ، مرحباً باله الزواج Hymen .
وهو أطول من أطول رجل ، مرحباً باله الزواج Hymen » .

ومن ناحية أخرى فانه من الطبيعى أن تمتدح سافو العروس ، وهى صديقتها ، وتبين كم هى جميلة ، وكيف أن العريس محظوظ بالزواج منها . وهنا سرعان ما يتحول موقفها من الهزل إلى الثناء . وأحسن مثال لهذا الانتقال يمكن أن يرى بوضوح من بعض الأبيات

التى تبدأ بتهنئة العريس وتنتهى بأنشودة تتغنى فيها بالعروس (الشذرات ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨) :

« أيها العريس السعيد ، هنيئاً لك ،
فقد تحقق لك الزواج كما تمنيت ،
وحصلت على العروس العذراء كما تمنيت ،
إن وجهها البديع يفيض رقة وعذوبة .
وأنت أيتها العروس ، إن شكلك بديع للغاية .
عيناك ذات لون عسلى ، ووجهك يغمره الحب .
وقد حبتك أفروديت بالتشريف والتكريم » .

ويبدو أن مثل هذه الأغانى كانت تنتهى بمثل هذه الكلمات (شذرة ١٦٢) :

« إلى الملتقى أيتها العروس ، إلى الملتقى أيها العريس الموقر » .

وهناك لون آخر من أغنيات الزفاف قد لا تجد له مثيلا لدى شعراء الإغريق فى غير أعمال سافو . ففى إحدى الشذرات التى وصلتنا نجد حواراً بين العروس وفتاة أخرى تمثل العذرية (شذرة ١٦٤) :

العروس : أى عذريتى ، أى عذريتى ، إلى أين هربت وذهبت بعيداً عنى ؟

العذرية : إلى حيث لن أعود إليك ثانية ، إلى حيث لن أعود إليك ثانية » .

ومثل هذه الأغنية لا بد وأن تكون مستمدة من الأغانى الشعبية ، وهى تذكرنا بالحوار الذى تتبادل فيه أفروديت وتابعاتها النحيب على أدونيس (شذرة ١٠٣) . ومن المحتمل أن العروس كانت تقوم بدورها فى الأغنية ، وترد عليها إحدى زميلاتها من فتيات سـافو .

لم يلعب الرجال إلا دوراً ضئيلا فى حياة سافو ، ومن ثم لم يأت لهم ذكر فى أشعارها إلا نادراً . فقد جاء ذكر لأخيهـا خاراكسوس Charaxus فى بعض الأشعار . وقد حدثنا هيرودوت (II. 135) عن القصة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . رحل خاراكسوس إلى ناوكراتيس Naucratis المستعمرة اليونانيـة فى دلتا النيل بمصر . وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق عليها اسم رودوبيس Rhodopis ووقع فى غرامها ، وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها ، وعندما عاد إلى وطنه ، عنفته أخته سافو على تصرفه هذا فى إحدى قصائدها .

كانت ناوكراتيس إحدى المراكز الهامة للتجارة اليونانية ، ومن المحتمل أن خاراكسوس كان قد رحل إلى هناك لأمور تتعلق بتجارة النبيذ من ليسبيا (cf. Ath. xiii. 596 b) . ولكن أهم ما فى القصة هو الجدية والصرامة التى قابلت بها سافو تصرف أخيها ، وإن فى معارضتها لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع لدلالة أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها . ولعل الاسم الذى عرفها به هيرودوت ، وهو رودوبيس ، هو اسم الشهرة الذى كان يطلقه عليها المحبون ، والاسم الحقيقى ، وهو ما جاء ذكره فى أشعار سافو ، هو دوريخا Doricha (cf. Stob. XVII, 808; Pap. Oxy. XV, 1800, I. 7–13 Phot. s.v 'Ροδώπιδος ἀνάθημ) .. وإذا لم تكن القصيدة التى أشار إليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد وصلنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعداء إلى دوريخا . فقد جاء فى إحدى الشذرات (٣٧) :

« أيتها القبرصية (أفروديت) لعل دوريخا تجدك أكثر مرارة ، ولا تفاخر مرة ثانية بقولها إنها قد وصلت إلى الحب الذى كانت تتوق إليه نفسها » .

لقد كان يكفى سافو أن تعيد إليها دوريخا حب أخيها لها ، وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيها لدوريخا أن تجد الحب مراً . ومن المحتمل أن هذه الشذرة جزء من القصيدة التى أشار إليها أثينايوس (xiii. 596 b) بأن سافو عنفت فيها دوريخا لأنها نحلت وبر أخيها . وإذا كانت سافو تستخدم فى الحديث عن دوريخا ألفاظاً قاسية ، فانها سرعان ما تصفح عن أخيها . ولدينا شذرة هى افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عوداً حميداً إلى الوطن ، وتعده بأنها ستغفر له كل أخطائه (شذرة ٣٦) :

« أى عرائس البحر الشقراوات ، أرجو أن تسمحوا لأخى أن يعود سالماً ، وأن تحققوا له كل رغبات قلبه الصادقة ، كما أرجو ، وقد زالت عنه كل أخطائه السابقة ، أن يصبح بهجة لأصدقائه ، وخطراً على أعدائه ، ولعل بيتنا لا يصيبه الخزى بسبب أى رجل . كما أرجو أن يكون راغباً فى أن يجعل أخته تمتلىء فخراً به ؛ ولعله ، عندما يعود فى يوم قريب ، يعمل ، وهو فى عز فرحة مواطنيه به ، على إزالة الألم المرير والكلمات الجارحة للشعور ، التى أصر قبل رحيله أن يملأ بها قلبى ؛ ولعله يحصل ، إن أراد ، على زوجة جديرة به وبعقد شرعى ؛ أما أنت ، أيتها الكلبة السوداء المؤذية (والمقصود بها دوريخا بلا شك) ، فلعل سموم شرك تذهب هباء ، وتسعين لاصطياد فريسة أخرى »

لم يقتصر احتقار سافو لدوريخا ، بل تعداها إلى أخريات . فلدينا شذرة (٧١) يقال إنها موجهة إلى امرأة غير متعلمة (cf. Stob. Flor. IV, 12) .

« عندما تموتين فسوف ترقدين فى عالم النسيان ولن يذكرك أحد ، لأنك لم تقومى بدور تجاه الورود نتاج بييريا Pieria ؛ فهناك الظلام ، وفى الظلام سوف تجوسين فى منزل الموت ، وتتجولين بين أشباح عديمة القيمة لا وزن لها » .

ولهذه الأبيات أهمية خاصة ، لأنها تطلعنا على رأى سافو بأن الخلود الحقيقى فى كتابة الشعر والأغانى ، وهى أول من عبر عن هذا الاعتقاد . كانت سافو تؤمن بهذا الرأى إيماناً صادقاً ، حتى إنها كتبت بفخر ولكن ببساطة (شذرة ٧٦) :

« إنى أقول إن شخصاً ما سيتذكرنا حتى فى الأيام المقبلة » .

كما تقول أيضاً (شذرة ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من إلهات الفن الشقراوات ، وعندما أموت لن أصبح نسياً منسياً » .

ويحدثنا أرسطو (Rhet. 1.9) بأن ألكايوس هو الشخص الذى كتبت له سافو تقول (شذرة ١١٩) :

« إذا كنت ترغب فيما هو عف ونبيل ، وإذا كان لسانك لا يهفو إلى قول ما هو سئ ، فلن يملأ الحياء عينيك ، بل ستتحدث عنه بحكمة » .

وذلك رداً على أشعار لألكايوس يقول فيها (شذرة ١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة ، يا ذات الخصل البنفسجية والابتسامة العذبة ، بنفسى كلام أود لو أقوله لك ، ولكن الحياء يمنعنى » .

وربما جاء ذكر لزوجها فى بعض الأشعار المفقودة (cf. Rose, H.B. G. L. p. 96)

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان يتصل بحياتها الخاصة ، إلا أن هناك بعض الشذرات التى لا علاقة لها بهذه الحياة .

من هذه الشذرات :

« إن من يبدو جميلا فهو جميل المظهر ، ولكن الفاضل سرعان ما يكون جميلا أيضاً » . (شذرة ٥٨)

« إن الثراء بلا فضيلة ليس رفيقاً مأمون الجانب ، ولكنهما لو اجتمعا معاً يكونان قمة الحظ السعيد » . (شذرة ١٠٠)

« إن الموت بلاء ، هكذا يعتقد الآلهة على الأقل ، وإلا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » . (شذرة ٩١)

هذه هى سافو وهذه هى بعض الشذرات التى وصلتنا من أعمالها التى يقال إنها كانت تملأ تسعة كتب. ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفسها وفنها ، وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة وما زالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التى كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة ، ومن ثم فهى تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبتها الطبيعة حتى الآن ؛ فان ذوقها السليم ، وصدقها المتناهى فى التعبير ، وخيالها البديع ، وقوة عاطفتها ، لهى مميزات وهبتها لها إلهات الفنون وربات الرشاقة ، فجعلن منها شخصية خارقة تفوق مستوى البشر ، ولذا نراها قد كرست معظم حياتها وفنها لهن ، كما أن أشعارها تفوح دائماً برائحة عبير وحيهن .